الأسبوع الحادي عشر : شعر الفتوح

حينما خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي الفرس والروم فقضوا على الأولى واستولوا على أهم ولايتين وهما الشام ومصر وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدونة يتغنون فيها بانتصاراتهم ويمتدحون بشجاعتهم وما أدوه من إخلاص وتفاني في دين الله تعالى ومن الصعب أن نعرض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ،ولنقف قليلا عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية وفيها يلمع اسم أبي محجن الثقفي وكان مولعا بالخمر فحبسه سعد بن أبي وقاص حتى إذا احتدمت المعركة توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه – يعود على أن يعود إلى قيده بعد المعركة وذلك ليسهم في شرف المعركة فأطلقه وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى سجنه بعد المعركة وهو ينشد

لقد عَلمت ثقيفٌ غيرَ فخرٍ ٠٠٠بأنا نحنُ أكرمُهم سيوفا

فإن أُحْبَسَ فقد عَرفوا بلائي ٠٠٠٠وإنْ أطلق أجرعُهم حُتوفا

وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم وهم يتصايحون بالشعر الحماسي منهم عمر وبن معد يكرب الزبيدي وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك ونهاوند ومن شعره

والقادسية حين زاحم رستم ٠٠٠٠كنا الحماة بهن كالأشطان

الضاربين بكلِ أبيضٍ مخدم٠٠٠٠ والطاعنين مجامع الأضغان

وممن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادي ابن أخت عمرو بن معد يكرب وهو الذي قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك وله يصور ذلك

جلبت الخيل من صنعاء تردي ٠٠بكل مدجج كالليث سامي

إلى وادي القرى فديار كلب ٠٠٠إلى اليرموك فالبلد الشامي

وجئن القادسية بعد شهر ٠٠٠مسومة دوابرها دوامي

فناهضنا هنالك جمع كسرى ٠٠٠وابناء المرازبة الكرام

فلما أن رأيت الخيل جالت ٠٠٠قصدت لموقف الملك الهمام

فأضرب رأسه فهوى صريعا ٠٠٠بسيف لا أفل ولا كهام

وقد أبلى الإله هناك خيرا ٠٠٠وفعل الخير عند الله نام

معاني الأبيات ---تردى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها

مسومة :معلمة ---الدوابر :العراقيب –دوامي :ملطخة بالدم – المرزابة :رؤساء الفرس – أفل :مثلم –كهام :كليل لا يقطع

وممن حضر القادسية الأسود بن قطبه وله فيها أشعار كثيرة وعمرو بن شأس الأسدي وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام وله يذكر قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك وله يصور ذلك

قتلنا رستما وبنيه قسرا ٠٠٠٠تثير الخيل فوقهم الهيالا

وفر الهرمزان ولم يحامي ---- وكان على كتيبته وبالا

وهناك أشياء لابد ان نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحاتهم و لعل أهمها أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ونسبت

إليهم أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نسبت في العصر نفسه إلى الشعراء والمجودين ،وأما من حيث القائلون فإن كثيرا منهم يكاد مجهولا لسبب بسيط وهو انه من عامة الجند ومن ثم اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار الى أصحابها ويكثر أن يرسل الراوي الشعر إرسالا بدون نسبته الى شاعر بعينه وينص الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في جزيرة العرب ولا يعرف من نظمهما ويعقب عليهما بقوله "وسمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب "وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت الى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب ،فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجدوا إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل

ويسود في هذا الشعر الإيجاز فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يضرب بسيفه غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويد وتحبير

ومن أفضل الكتب التي كتبت عن هذا الشعر كتاب "الاستيعاب والإصابة وكتب التأريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل الأغاني وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت الحموي " ولم تكن كلها اشعرا حماسية ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفتقدونهم ومن

غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القصاص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع خيالهم ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على السنة الفاتحين وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك مقصدين له حينا وراجزين أحيانا أخرى وطبيعي أن يشيع فيه الرجز لأنه كان فعلا الوزن الشعبي الذي ينظم فيه عامة العرب ٠